وفي تجربته، ضمن الثورات السورية في الشمال، تأكد لدى القسام أن أفندية الأرض والحكم، لا يساومون استناداً الى مواقع السلطة فحسب، بل ويساومون داخل الثورة المسلحة. فتطابق الدرس التاريخي مع درس الحياة المعيش، في التقابل بين عرابي، وهو وزير دفاع الخديوي توفيق، الذي قاتل منفرداً وتحمل النفي، وبين يوسف العظمة، وهو وزير دفاع الأمير فيصل، الذي قاتل واستشهد منفرداً. وجاءت خبرة الثورة لتستكمل الدرس، عندما أوقف صبحي بركات ثورة الاسكندرون، وهو قائدها، وانحاز للفرنسيين، وعندما قام اسياد الأرض بقيادة الحملات الفرنسية بحثاً عن مكامن الثوار.

ولأن القسام ليس بحاجة الى انصاف من خارج تجربته، فان دراسة الخلاصات التي عينتها ممارسته، ودروس المراحل التي عاش فيها، هي وحدها القادرة على الحياة، بعيداً عن الحب الاسقاطي الساذج والاختزال الكسول.

بيئة التناقض

قدمت قرية «جبله»، القرية الواقعة على البحر، جنوب اللاذقية، حيث ولد الشيخ عز الدين القسام عام ١٨٨٢م، بيئة نموذجية للتناقض. واستمدت العائلات الرئيسية مكانتها من ملكية الأراضي (آل كنج ــ آل ديب ــ آل آغا)، أو التجارة (آل عكو ــ آل غلاونجي)، أو الفقه والشريعة (آل القسام ــ آل يونس).

ومنذ صدور قوانين الطابو في العهد العثماني (١٨٦١م)، حيث الزم مالك الأرض بدفع ٥ ٪ من قيمتها وثلاثة قروش ثمن سند الطابو، تهرب الفلاحون الفقراء من تطويب أرضهم، بسبب عجزهم عن دفع الرسوم، رغم أن رسوم الاستملاك وصلت الى حد «نصف قرش للدونم الواحد في لواء دمشق، وثلاثة قروش في قضاء حمص»[١]. وانفتح الباب أمام الملاك الكبار والمتوسطين، لتوسيع حيازاتهم، عن طريق تطويب أراضي الفلاحين الفقراء بأسمائهم، ووضع اليد على الأراضي، «وكان باستطاعة كل رجل غني أن يصبح ملتزماً لقطعة من الأرض»[٢]. ولم يتعامل الملاك الجدد مع أصحاب الأراضي الشرعيين على القاعدة الاسلامية، «المالك الذي لا يبذر أرضه يجب أن يسمح بزرعها لأخيه المسلم»[٣]، بل على قاعدة المحاصصة أو الضمان السنوي. وحينها ظهر لقب أفندي كمرادف للملاك الكبير، حيث كانت معظم قرى حمص، حماه، السلمية وحلب، بيد الاقطاعيين والدولة الاقطاعية[٤].

وكان هؤلاء الأفندية هم ملاك القرية وسادتها، ووكلاء الحكم العثماني فيها. وليس صعباً، تلمس مفاسد الحكم ووكلائه ومظالمهم.

وفي أسرة متدينة، متوسطة الحال تميل الى الفقر، وبعيدة عن زعامة الملاك الكبار ونفوذ العائلات التجارية، عاش عز الدين القسام طفولته. وكان فخر الأسرة الأسمى انها منسوبة الى النبي، وذات سمعة محمودة بالاستقامة.

أبوه، الشيخ عبد القادر القسام، كان صاحب طريقة صوفية، وله مدرسة (كتاباً) يعلم فيها الأطفال أصول القراءة وحفظ القرآن، وعمل لفترة من الوقت كمستنطق في المحكمة.

وتزوج عبد القادر من امرأتين: